

الحلقة الثامنة والثلاثون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تابع سليمان الحكيم في اللقاء الماضي الحديث عن قراراته العملية. فقارن بين الحكمة والحماسة، وأثر الجهالة السلبي على الحكمة. وكشف أن الحكيم هو من يسعى لعمل الحق. ودعا المرء لكي يقابل غضب مسؤوله بهدوء. وكشف عن تناقضات الحياة، وكيف أن الحمقى قد يتبوأون مراكز عالية.

صديقي المستمع، قبل إقدامك على أي مشروع، أو عمل ما، هل تدرس كل جوانب هذا المشروع أو العمل بدقة؟ وهل تحسب حساب المخاطر التي قد تتعرض إليها؟ وهل تحاول معرفة ما إذا كنت تتمتع بالإمكانيات أو المهارات والموارد التي تساعدك على نجاح هذا المشروع أو العمل؟ كتب سليمان الحكيم قائلاً: « كل من يحفر حفرة يقع فيها، ومن ينقض جداراً تلدغه حية. ومن يقلع حجارة تؤذه، ومن يشقق حطباً يتعرض لخطرها » (الجامعة ١٠: ٨-٩ تفسيرية) إن المقصود بهذه الأمثال الشائعة، أنه لا يمكن أن يتم البدء بأي عمل جديد بدون أخطار متوقعة.

وكما أوضح سليمان الحكيم من هذه الأمثال: أن على المرء عندما يحفر حفرة، أن ينتبه لكي لا يقع فيها، وكذلك عندما ينقض جداراً لكي لا تلدغه الحية. أو عندما يقلع حجارة عليه أن ينتبه لكي لا تسقط عليه، أو عندما يشقق حطباً لكي لا يقع الفأس على رجليه فيؤذيها. إن هذه الأمثال كما هو ملاحظ مأخوذة من واقع المجتمع القديم الذي كان يعيش فيه سليمان الحكيم، لكن نستطيع تطبيقها على أيامنا الحالية. إذ على الإنسان قبل الإقدام على أي مشروع أو عمل، مهما كان، أن يدرس هذا المشروع ومخاطره بشكل جيد، فلكل مشروع مخاطره.

وتابع سليمان الحكيم حديثه عن هذه الأمثال، موضحاً فكرته عن أهمية التمتع بالمهارات والامكانيات اللازمة للقيام بهذا المشروع، وضرورة حساب النفقة. فكم من إنسان بدأ مشروعاً لكنه لم يستطع أن يكمله، والسبب لأنه لم يكن يمتلك المهارات والامكانيات المادية التي تُتجح هذا المشروع. كتب سليمان الحكيم قائلاً: « إن كل الحديد ولم يشحن صاحبه حده، فعليه أن يبذل

جهداً أكبر! والحكمة تسعف على النجاح. إن كانت الحيّة تلدغ بلا رُقِيّة، فلا منفعة من الرّاقِي» (الجامعة ١٠:١٠-١١ تفسيرية).

يبدو واضحاً من هذين المثليين أن على الإنسان أن يتأكد أن عنده ما يكفي من مهارة وموارد تحت أمرته. إن محاولة عمل أي شيء بدون المهارات اللازمة، أو الأدوات الضرورية، إنما هي كمحاولة قطع شجرة بفأس كئيلة. فإذا كانت آلتك كئيلة، فسنتها لتؤدي عملاً أفضل. وكذلك إذا كانت الحيّة تلدغ من دون أن تفرز السّم فلا تنتفع من لدغتها. وبالمثل إذا أعوزتك مهارات فيجب أن تشحذها بالتدريب والممارسة. وفي كل الحالات فإن شحذ الفأس، يعني إدراك أين توجد المشكلة، واكتساب أو شحذ المهارات، أو الأدوات، لتأدية العمل بصورة أفضل، ثم الذهاب للقيام به. فعلى المرء أن يكتشف المواهب التي يتمتع بها، ويحاول معرفة الأماكن التي كلت فيها، لكي يشحذ مهاراته من جديد، ويكون أكثر فعالية.

إن اكتساب المهارات وشحذها قد لا يكفي، إذ على المرء أن يحسب أيضاً لحساب النفقة، أو تكاليف المشروع الذي يريد القيام به. إذ غالباً عندما تتوقف المشاريع، يكون السبب عدم توفر الموارد المالية. وعندها تكون الخسارة أكبر، فيخسر الإنسان كل أمواله، ويعود إلى الحضيض. أعرف عن عائلة بدأت مشروعاً تجارياً كبيراً، لكن مع الأسف لم تكن تمتلك المهارات اللازمة، ولا الأموال الكفيلة بإنجاح هذا المشروع. وكانت النتيجة أن خسرت هذه العائلة كل المال الذي تمتلكه، لا بل خسرت البيت الذي كانت تقطن فيه. ولم ينفع الندم بعد فوات الأوان.

هل تعلم صديقي المستمع أنه كما في حياتنا العادية هكذا يكون الوضع في حياتنا الروحية وعلاقتنا مع الله تعالى؟ فإذا لم يحسب المرء حساباً جيداً للتضحية التي يجب أن يقوم بها لكي يدخل إلى ملكوت الله، فإنه لن يستطيع أن يكمل الطريق الذي بدأه.

قال المخلص المسيح في هذا المجال: « مَنْ لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً. وَمَنْ منكم وهو يريد أن يبني برجاً لا يجلس أولاً ويحسب حساب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله. لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمل. وأيُّ ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لا يجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً. وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصالح. فكَذَلِكَ كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (بشارة لوقا ١٤: ٢٧-٣٣).

لقد أراد المخلص المسيح القول، أنه إذا أراد أحد اتباعه أي الإيمان به، والحصول على خلاص الله، عليه أن يتوب عن خطاياه، ويضحّي بملذات ومتع هذا العالم، لا بل أن يترك التعلق بأمواله إن كان غنياً. إن الحصول على خلاص الله هو أمرٌ ثمين للغاية، ولهذا على المرء أن يضحى بكل شيء للحصول عليه. ولهذا شبّه المخلص المسيح ملكوت الله بالكنز الثمين المخفى في حقل، الذي عندما وجده إنسان أخفاه، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل. وشبهه أيضاً بإنسان تاجر يطلب لآلئ حسنة، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها. (بشارة متى ١٣: ٤٤-٤٦)

ألا تود مستمعي أن تضحى بكل شيء في سبيل الحصول على خلاص الله الثمين؟ وهل أنت مستعد أن تحسب حساب النفقة؟ إن خلاص الله يعني أن تتال الغفران الكامل عن خطاياك، وتصبح من أولاد الله، وتحظى بالحياة الأبدية. فهل هناك أعظم من هذا الخلاص؟ وهل أنت مستعد للتضحية؟